قراءة مضمونية في قصيدة

(استحالات) للشاعر شكري شاكر

بقلم د. رحيم الغرباوي

(شكري شاكر) شاعر مرهف الإحساس من مدينة السياب الذي منح الشعر الحديث هويته في ضوء الفكرة المطلقة التي قال بها هيجل ، إذ يرى فيها : أنَّ لكل عصرٍ فكراً مطلقاً ، وكان من بين الأفكار التي وجدناها قد تجلَّت حسب مفهوم هيغل ظهور شعر الرؤيا الذي عمَّ الساحة الأدبية العربية ، فكانت قصيدة ما يسمى الشعر الجديد ، ولعل بصرة السياب هي من منحت طابع الإبداع الشعري لأبنائها ، لكن لكل شاعر طريقته في الكتابة تبعاً لتجربته الشعورية وثقافته المكتسبة ، ولعل شاعرنا شكري ؛ ذلك الذي تعددت لديه صور الإبداع في ميادين متنوعة من مجالات الأدب بروحه المُحبة للحياة والجمال ، نراه يسكب من تجربته الشعرية أنهاراً من ذلك الجمال عندما تتجلى تلك الروح في ملكوت الحب الذي شيَّد الله سبحانه الكون من جوهره ؛ بغية أن يعيش الإنسان موفوراً بالسعادة ، ولاشيء سوى السعادة رجاها الله لخلقه .

يبدو أنَّ شاعرنا يخوض تجربة حياتية يُحسَد وقوفهُ على منصات جلالها الأنيق ، إذ نراه من خلال قصيدته (استحالات) منحنا فرصة توضيح ماهية الشعر ، وحسب هوسرل الفيلسوف الألماني الذي يرى أنَّ الحقائق ماكثة في الشعور والعالم الخارجي ما هو إلا تمظهرات لتلك الحقائق التي تمثِّل (الجوهر) ، وعندما يترجم الشاعر مشاعره على شكل صورٍ مختلفة الأشكال فما هي إلا صورة واحدة لذلك الجوهر ، ولعل قراءتنا لقصيدته تكشف لنا عن حقيقة الحب الكبير الذي تلقَّع به قلب شاعرنا ، وهو يخاطب محبوبته ؛ فيسكب لها سيلاً من التساؤلات المفعمة بالتحدي لجميع العشاق ، وكأنه يبصر أنّ محبوبته لجمالها وفتنتها يلتف حولها العاشقون : لذلك نراه يصف حبه بالعظمة والعطاء الذي لاتحدَّه حدود ، فهو يقول :

أوجدي لي مَن يحبُّكِ مثلي

سأجعل يدي تمتد لمجرَّةٍ أسحبها إلى الأرض ،

فأفرشُ عليها من ندى السحابة مطرا

سأصادق القمر والنجوم .

أية طاقة كونية سيستعملها الشاعر؟ إنه الشعر ذلك العالم المطلق ذو اللحظة الوجودية لحظة الخرق والاختزال ، إذ إنَّ من الأمور التي تباعد بين الشعر والنثر هو تحرر الشعر من المنطق والقانون

الأرضي، ومن هنا يجب أن نباعد ونزيد الهوَّة بينهما ، فنزيد من كسر المنطق في الشعر ، ونزيد من عدم انتظام الأفكار ، أو إرباكها كليَّاً ، ونحن أمام شاعر يحلّق بالشعر في ظنّنا إلى مستوى الخرافة التي تجعل منه ، يحمل حقيقة غرائبيته ، نراه يخترق الأكوان والفضاءات ؛ ليسحب مجرَّة من مجرّاتها لأجل حبيبته ؛ كي يفرش لها من ندى السحابةِ مطراً ، إنه يستلهم طاقته من ملكوت الحب في صومعة الجلال الصوفي ؛ مما يجعله يحلق في عالم الشعري ، مختزلاً الزمن وهادماً قوانين الكون ومبعثراً الاشياء ؛ ليشكلّ منها عالماً جديداً موشّى بطرزٍ لايجمع أطرافها إلا الخيال ، فكيف لروحه أن تصادق القمر والنجوم ، ولعله يصدق ، فهو يقول :

وأرسمُ على بريقهما ضوء صورة امرأة تشبهك ،

وأمنحها من الإغراء ما يدفعهما للقناعة بالنزول معي ؛

لندخلَ معاً لنافذة تطلُّ عليكِ ؛

وأنتِ تحتضنين وسادةً خالية من الحلم .

إنَّه يرسم صوراً جميلة ملتقطاً من عوالم لاوعيه الحقيقة ؛ كونه يقول الشعر بصدق الشعور ؛ لذلك نراه يفصح بما قاله إفلاطون في حديثه عن عالم المثل ومحاكاة الشعر لما هو محاكي لها في الواقع ، لكن شاعرنا قلب صورة المثال ؛ ليجعل من حبيبته هي المثال ، بينما صورتها الكونية هي الشبيهة لها ، وأيّ عوالم تتطوف حول نافذتها : روح الشاعر ومثالها من الضوء ،ويبدو أنَّ الضوء يمثل صورة نقاء المحبوبة ، يؤكّد تمسكه بحبها ، كذلك القمر والنجوم يتطوَّفان ، ولما كان الشعر خرقاً للعادة ، ورسم صورٍ غير مألوفة من عالمٍ غير مأهول لكنه أزليٌّ مطلق ، مليء بالمعاني التي لايمكن للعقل الإحاطة باكتناه معانيها ؛ لذلك يقول فلوبير في وصفه الشعر : " إنَّ ماليس له معنى ... له معنى متفوِّق على الذي له معنى " لذا شاعرنا خاض تجربة الشعر ، فرقى في لحظة الإبداع مختزلاً الزمن وقارعاً أبواب اللامعقول ؛ ليرسم صوراً تتقبلها الذائقة وتزدلفها المشاعر ، ولعلنا من زاوية أخرى نجده ، يرسم بريشته حكاية أسطورة الخلق الأول ، وكأنه إله من آلهة الأساطير التي روتها ملحمتا الإلياذة والأوديسة وكيف كانت تلك الآلهة تغيِّر مجرى الكون ؛ لأجل حقيقة واحدة هي شعور الانسان حينما يبحث عن وسائل للانتصار على الآخر ، ذلك من خلال الإيمان بصنع الخوارق والخوض في توظيف كلّ ماهو يشع بالمقدس فوجدنا شاعرنا بروحه المحبَّة يصنع المستحيل لكنه في الوقت ذاته، نجده يبث إغراءاته للحبيبة عساها تعدل عن رأيها حسب مايبوح به فعل الأمر (أوجدي) الذي كرَّره ثلاث مرَّات ومع كلّ مرَّة يبث لنا تحديه موصولاً بإغراءاته لها من أنها الفريدة في العالم الذي سيصنع لها به جنّة من الف ليلة وليلة حيث عوالم السحر والجمال (أصادق القمر والنجوم ، الأسماك تشفط من البحر ماءه ، والسفن تتخذ من عينيك موجا ، الشمس وتوقيت مخيلتها ، الورد يستعير من الفراشات أجنحتها ، يحيل كل مافي القحط امتلاء) أجل إنَّها قدرات العاشق وهو يتحدث بلغة المجاز ، لكن في عوالم شعوره مايراه ونراه حسب فهمنا لحقيقة الشعور إن لا حقيقة إلا حقيقة الشعور تلك الناصعة البياض .

نقول لشاعرنا شكري شاكر : إنَّ الشعر يصنع المستحيل ، وقد كُذِّبتْ أحدوثة الفيلسوف سارتر في نظريته الوجود والعدم، فلا عدم في عالم الشعر ، بوصفه كشفاً وحدساً وتخطّياً وتجاوز وإيطاء أرض غير موطوءة من قبل .